الصراع بين الفصحى والعامية
أو
أثر الازدواج اللغوي في أسلوب يوسف السباعي

الدكتور زكي عبد الملك
أستاذ الأدب العربي والعلوم اللغوية
جامعة يوطا (الولايات المتحدة)

في العالم العربي ازدواج لغوي قوامه اللغة الفصحى واللهجات العامية الدارجة . فاما اللغة الفصحى فتستخدم في اكثر الاغراض الكتابية كما تستخدم في اكثر الاحاديث التي يغلب عليها الطابع الرسمي . واما اللهجات العامية فيستخدمها الناس في غير تكلف لقضاء حاجاتهم العادية . والاغلبية الساحقة من المثقفين في البلاد العربية يرون ان **اللهجات العامية لا تصلح للتعبير الادبي** ، ولهم في ذلك حجج يجدر بنا ان نعرض لها في ايجاز :

واهم تلك الحجج ان **اللغة الفصحى لغة القرءان** وعلى معرفتها يتوقف فهم القرءان . لذلك تحمل علماء اللغة فيما مضى الوانا من المشقة وضروبا من العناء في شرح قواعدها (1) ، ولذلك يابى العرب اليوم ان يستبدلوا بها اللهجات العامية في كتابة الادب فيقصوها من حياتهم اقصاء لا ندري اتعود بعده أم لا تعود .

ثم ان **اللغة الفصحى** تعتبر عند العرب **ارقى من اللهجات العامية وأعذب** ، واتقانها دليل عندهم على الثقافة العالية والذوق الرفيع . ليس غريبا اذن ان يرد عليه حسين جهل فريق من الشعراء بالفصحى الى الكسل والتقصير والقصور (2) .

واللغة الفصحى مشتركة بين العرب اينما وجدوا فالمغربي يقرا ما يكتب في مصر فيفهمه ، والمصري يقرا ما يكتب في المغرب فيفهمه . أما اللهجات العامية فتختلف باختلاف المناطق ، واستخدامها في كتابة الادب يحول بين الادباء في كل منطقة وبين القراء في المناطق الاخرى .

بقيت حجة اعرب عنها الدكتور محمد مندور حين زعم ان العامية الدارجة تضيق عادة بالتعبير عن اعمق المشاعر وادق المعاني « بحكم انها لا تزال مقصورة على حياة الاميين الذين لا يستعملونها الا في التعبير عن حاجات حياتهم الضيقة في نوع المشاعر ودقة التمييز بينها ، فضلا عن عمق الخاطر او اصالته » (3) .

ولما ظهرت القصة الحديثة في الادب العربي ونشا فن المسرح العربي الحديث ، اخذ بعض الادباء يتبرمون باطرارهم الى انطاق الشخصيات القصصية والمسرحية باللغة الفصحى . وتساءل اولئك الادباء : افليس عجيبا ان يجري الحوار بلغة فصيحة متينة السبك بين اشخاص لم يصيبوا من الثقافة كثيرا ولا قليلا ؟ اليس ذلك مما يفسد القصة والمسرحية ويناى

---

(1) « المقدمة » للعلامة ابن خلدون (القاهرة: مطبعة التقدم) ، الجزء الاول ، ص 455 .
(2) « حديث الاربعاء » لطه حسين (القاهرة : دار المعارف ، 1957) ، الجزء الثالث ، ص 200 — 201 .
(3) « المسرح النثري » للدكتور محمد مندور (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، 1959)، ص 81 .

بهما عن الواقع الذي تجتهدان في تصويره ؟ ومع ذلك ظل اكثر الادباء والنقاد يرون **اللغة الفصحى خير اداة للتعبير في المسرحية والقصة ، ويقاومون استبدال العامية بها** ؛ فالدكتور محمد مندور مثلا لا يتردد في رفض الدعوة الى استخدام العامية في المسرحية ، وهو يعلل رفضه على النحو التالي :

« كل مسرحية انما هي حكاية حال ... ولا يمكن أن تكون حكاية لسان ، فالمؤلف لا ينطق لسان مقال شخصياته الروائية بل ينطق لسان حالهم ، والواقعية ليست في اللغة وانما في التصوير النفسي للشخصيات ومدى مطابقة هذا التصوير لواقع الحياة الظاهر منها والخفي ، والذي تستطيع الشخصيات التعبير عنه أو لا تستطيع . والذي يحدث فعلا هو أن المؤلف يعبر بلغته هو وبلسانه ، وكل ما يطلب منه هو أن يأتي تعبيره صادق التصوير لواقع شخصياته . وسيان في ذلك ــ من الناحية الفنية ــ أن يستخدم لغة عربية فصيحة أو عامية أو اية لغة اخرى » (4) .

والاديب المصري يوسف السباعي ممن يرون ان للعامية في القصة والمسرحية دورا يجب أن تؤديه . وقد عرضه ذلك لنقد عنيف رد عليه أكثر من مرة ثم تظاهر بالاعراض عنه ، ولكنه تاثر به ما في ذلك شك ، فقد مر اسلوبه القصصي بمراحل ثلاث : كان في المرحلة الاولى اسلوبا جزلا فصيحا يكثر فيه الاستشهاد بالشعر ويوشك أن يبرا من العامية . ومن خير الامثلة على أسلوب هذه المرحلة كتاب «اطياف» (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1947) ، فانت تقرا فيه الصفحة تلو الصفحة فلا تجد من العامية (5) الا الفاظا قلائل متفرقة ، يدل عليها المؤلف ويميزها من بقية الالفاظ كانه يعتذر منها الى القارىء : (6)

اني لم أرك منذ كنت تصطاد السمك على شاطيء الترعة « بالبنطلون القصير »

ما زالت ذاكرتك قوية « يا عم محمد »

ساجهز لك « سنارة » لصيد السمك .

وقد تجد بين صفحات الكتاب احيانا ما يبعث في نفسك شعورا قويا بأن المؤلف يشق على نفسه في الكتابة ، ويتكلف من العناء شيئا غير قليل في اختيار الالفاظ حتى تستقيم له العبارة ويبرا اسلوبه من العامية : (7) .

— قم يا ابن اللئيمة . ماذا تفعل هنا ؟ تالله لئن رايتك خطوت الى هنا مرة ثانية لادقن عنقك .

— لتقر عيناك يا ابا لهب ، ولتهدا بالا . لتتخذن لك من داري مأوى ومخبا .

وفي المرحلة الثانية تنقسم القصة من حيث الاسلوب الى قسمين : القسم الاول هو ما يقدمه السباعي نفسه بين يدي القارىء من تحليل ووصف للزمان والمكان والاحداث والشخصيات . واسلوب هذا القسم فصيح رغم أن الالفاظ العامية تتسرب اليه بين الحين والحين . والقسم الثاني هو الحوار ، واسلوبه عامي ليس فيه من آثار الفصحى الا الهجاء . ومن خير الامثلة على أسلوب هذه المرحلة كتاب « السقامات » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1952) الذي شرح السباعي في مقدمته موقفه من العامية :

« التقيت ذات يوم بالاستاذ احمد بك عباسي كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانباني ان الوزارة كانت توشك أن تقرر بعض كتبي لمدارسها لولا أن اللجنة المختصة رات ان الكتب تحوي بعض عبارات بالعامية ....

« وعلى هذا فلم اكد ابدا هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التي تتفرع عن اللغة العامية، وعزمت ان اقيم سياجا منيعا يحول دون تسرب الالفاظ العامية التي تابى الا أن تفرض نفسها فرضا في سياق الحديث . واخذت في الكتابة محاولا اجراء الحوار بين أبطال القصة باللغة الفصحى ، ولكني لم اكد اكتب بضع صفحات ، ولم اكد « اجمي » في الكتابة ، حتى وجدت ابطال القصة ينطلقون على الرغم مني في الحديث بالعامية ...

---

(4) المرجع السابق ، ص 57 – 58 .
(5) اللهجة العامية التي يستخدمها يوسف السباعي في قصصه هي اللهجة القاهرية .
(6) ص 82 .
(7) المثال الاول مقتبس من صفحة 25 والثاني مقتبس من صفحة 28 .

« ولست اشك اننا في فترة صراع بين العامية والفصحى ....

« وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع بين الفصحى والعامية . ولا جدال هناك في ان الغلبة ـ في الحوار ـ للعامية ، لانه من المستثقل المحجوج ان نحاول انطاق اشخاص القصة باللغة الفصيحة وهم لا يمكنهم في حياتهم الطبيعية ان ينطقوا بها » . (8)

واستئثار العامية بالحوار جاء في العبارات التالية التي نقتبسها من الكتاب : (9) .

ـــ ما فيش لزوم يا شحاتة افندي . انا رايح القهوة بتاعتنا عشان عندي شوية شغل عايز اقضيهم .

ـــ وماله . تقضي شغلك وبعدين نروح سوا .

بقي اسلوب المرحلة الثالثة ، وهو يفوق الاسلوبين السابقين في الاهمية لسببين :

اما السبب الأول فهو ان السباعي يلتزم ذلك الاسلوب في اكثر ما كتب من قصص ، ولعله قد استقر واتخذه مذهبا دائما . واذن فقد يكون ذلك الاسلوب النتيجة التي انتهى اليها الصراع بين العامية والفصحى عند السباعي . وما دامت **خصائص الازدواج اللغوي واحدة في كل مكان** (10) فقد يكون في اسلوب هذه المرحلة من الخصائص ما هو شائع في الاساليب القصصية اينما يوجد الازدواج اللغوي .

واما السبب الثاني فهو ان السباعي من اكثر العرب انتاجا ، فقد نشر بين عامي 1947 و 1968 خمسة واربعين كتابا ، منها خمس مطولات مسرفة في الطول هي : « رد قلبي » و « ناديا » و « جفت الدموع » و « ليل له آخر » و « نحن لا نزرع الشوك » . واكثر قراء السباعي من الشبان الذين تبدأ حياتهم الادبية عادة بتقليد ما يطالعون . وقد ظفر السباعي من ثناء النقاد (11) بما يغري القراء بتقليده ان كانوا في حاجة الى الاغراء ومنهم من يعجبون به اعجابا يخرجهم عن طورهم احيانا . (12) لن يدهشنا اذن ان يكتب عدد كبير من قصص المستقبل باسلوب المرحلة الثالثة .

لهذين السببين يجدر بنا ان نحلل اسلوب المرحلة الثالثة في شيء من الاناة والتفصيل . واول ما نلاحظه **ان السباعي في تحليله ووصفه يصطنع اسلوبا فصيحا تعترضه احيانا الفاظ عامية او اجنبية** كالالفاظ التالية:

برنيطة ، معيز ، بنج بونج ، دكة ، شلة ، شورت ، بوز ، تنس ، مد موازيل .

لكن الجديد حقا في اسلوب هذه المرحلة هو ما تجده في الحوار . ذلك ان لغة الحوار ليست فصيحة صرفا ولا عامية صرفا ، وانما هي بين بين ، تاخذ من هذه بمقدار ومن تلك بمقدار . ومن خير امثلة على هذا الاسلوب كتاب « نادية » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1960) . تقرأ ذلك الكتاب فيخيل اليك ان الاشخاص يتخاطبون على فطرتهم بالعامية ، ولكنك تتامل ما يقولون فاذا انت مضطر الى الاعتراف بان للفصحى اثرا ظاهرا لا سبيل الى انكاره . **على هذا النحو يجتهد السباعي في التوفيق بين العامية والفصحى** وهو يتوسل الى هذا التوفيق باربع وسائل هي : اقتباس ، واصطناع كلمات « الطبقة الدنيا » ، وترجمة التعابير العامية الى الفصحى ، وتجريد الكلمات من علامات الاعراب . ولنفصل :

الاقتباس

يقتبس السباعي من الانجليزية والفرنسية عددا غير قليل من المفردات ولكنه ، كما يتضح من الامثلة التالية ، قل ان يقتبس العبارات :

هالو
ول
تيم
جمنزيم
بونجور

---

(8) ص 6 ـ 8 .
(9) ص 261 .
(10) Charles Ferguson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), pp. 325-340.
(11) من هذا الثناء ما كتبه توفيق الحكيم في « يا امة ضحكت » ليوسف السباعي (القاهرة : مطبعة روز اليوسف 1955) ، ص 5 ـ 8 .
(12) سجل يوسف السباعي شيئا من هذا الاعجاب في كتابه « اني راحلة » (القاهرة : مؤسسة الخانجي 1950 ، ص 10 ـ 15 .

غير ان ما يقتبسه السباعي من اللغات الاجنبية قليل اذا قيس بما يقتبسه من العامية . ذلك أن السباعي لا يقنع فى اقتباسه من العامية بالمفردات بل يتعداها ، كما ترى فى الامثلة التالية ، الى التعابير ولا سيما التعابير المجازية والامثال السائرة :

ماما	فسحة	عبيطة
بابا	جاكتة	يزغد
شماعة	فانلة	طس
زور	فتلة	
امال	سي (سي عمر)	
الله !	يا ريت	
اما (اما مفاجأة !)	ومالة	

على سن ورمح ـ عيون فارغة ـ يفتح الله

لا هنا ولا هناك (أنا لا هنا ولا هناك)

جه نقبها على شونة

اكف الجرة على فمها تطلع البنت لامها

الله يخرب بيته ـ الله يعمر بيته ـ لا مؤاخذة

راح الله لا يرجعه ـ اشيل مين فيهم ـ راجل اليط انت بنت مايعة ـ مياعة بنات ـ مش بطال ـ برك على انفاسي ـ حاضر يا فندم .

ولعة نوع آخر من الاقتباس يتميز به الحوار فى المرحلة الثالثة هو اقتباس التراكيب من العامية . ومن امثلة ذلك :

(1) العطف بدون حرف عطف :
قومي البسي

(2) تكرار اللفظة للدلالة على الاستهتار :
شيوعيون شيوعيون

(3) مخالفة البدل للمبدل منه فى التعريف والتنكير :
عند دادة فاطمة

(4) استعمال الواو للدلالة على الاستمرار :
ثلاث ساعات وانا واقف على قدمي

(5) مخالفة بعض الصفات للموصوف فى التذكير والتانيث ، او فى الافراد والتثنية والجمع :

فستان بمبة ـ زهور بمبة ـ ناس بلدي

ولنلاحظ ان السباعي فى اقتباسه من العامية متاثر بالفصحى من حيث لا يدري . فما ينطق فى بعض الكلمات العامية همزة يكتبه السباعي قافا ، وما ينطق فى البعض الآخر دالا يكتبه ذالا :

نقبها ـ خد بالك

اصطناع كلمات « الطبقة الدنيا »

الكلمات المشتركة بين اللغة الفصحى واللهجة العامية القاهرية ثلاثة انواع :

(1) كلمات لا تختلف صيغها العامية عن صيغها الفصيحة ، ومن هذه الكلمات « كتب » و « درس » و « بلد » و « من » وهلم جرا .

(2) كلمات لكل منها صيغة فصيحة واخرى عامية : والصيغتان تختلفان اختلافا يقرره قانون لغوي عام . فالصيغ الفصيحة « نائم » و « صائم » و « عائم » و « دائم » و « فوائد » تختلف عن نظائرها فى اللهجة القاهرية (« نايم » و « صايم » و «عايم » و « دايم » و « فوايد »)
اختلافا يقرره القانون اللغوي القائل ان المشتقات من مجرد الثلاثي الاجوف تكون عينها فى العامية القاهرية ياء اذا كانت فى الفصحى همزة .

(3) كلمات لكل منها صيغة فصيحة واخرى عامية : والصيغتان تتشابهان الى حد وتختلفان الى حد ، ولكن ما بينهما من فرق لا يقرره قانون عام. فالفروق التي تميز الصيغ الفصيحة « رجل » و « امراة » و « عربة » من نظائرها فى اللهجة القاهرية (« راجل » و « مره » و « عربيه ») لا تقررها قوانين عامة .

ومن الكلمات المشتركة ما له مترادفات تنفرد بها الفصحى من دون العامية ، ومنها ما ليس له مثيل هذه المترادفات : فالفعل « دوخ » مشترك بين العامية والفصحى ، وله مرادف فصيح لا تشترك فيه العامية هو « ارهق » . واسم الفاعل « صائم » مشترك بين العامية والفصحى كذلك ، الا اننا لا نجد له مرادفا تنفرد به الفصحى من دون العامية .

يمكننا اذن ان نقسم الكلمات الفصيحة الى ثلاث طبقات : طبقة عليا تتألف من كلمات تنفرد بها الفصحى من دون العامية (مثل « حذاء ») ، وطبقة وسطى تتألف من كلمات مشتركة فصيحة الصيغة ليس لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « صائم ») ، وطبقة دنيا تتألف من كلمات مشتركة فصيحة الصيغة لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « دوخ »).

وكلمات الطبقة الدنيا تتسم بطابع عامي مصدره وجود مترادفات لها في الطبقة العليا . لذلك يزور انصار الفصحى عن كلمات الطبقة الدنيا ؛ اما يوسف السباعي فيتعمد اختيار تلك الكلمات ليبلغ ما يريد من التوفيق بين العامية والفصحى . وفيما يلي بعض ما يستعمله السباعي من كلمات الطبقة الدنيا ، وما يؤثره انصار الفصحى من كلمات .

كلمات الطبقة الدنيا	كلمات الطبقة العليا
قومي	انهضي
راقدة	مضطجعة
يدوخونه	يرهقونه

ترجمة التعابير العامية الى الفصحى

نصح الدكتور محمد مندور للقصاصين بترجمة اقوال العامة كلما دعت الى ذلك مشاكلة الواقع (13). وقد وفق السباعي الى نوع من الترجمة لا نزعم انه يرضي الدكتور محمد مندور ، ولكنه ابرز ما يتميز به الحوار في المرحلة الثالثة .

يعمد السباعي الى العبارة العامية فيبقي فيها على النوع الاول من الكلمات المشتركة ، اما بقية الكلمات المشتركة فانه يستبدل صيغها العامية بالصيغ الفصيحة ، واما الكلمات التي تنفرد بها العامية من دون الفصحى فانه يستبدلها بنظائرها الفصيحة . وفيما يلي بعض العبارات العامية ، والترجمة التي يستعملها السباعي ، والعبارات التي يؤثرها انصار الفصحى :

العبارات العامية	الترجمة	العبارات الفصيحة
سليم اربعة وعشرين قيراط	سليم اربعة وعشرين قيراطا	معافى تماما
سليم ميه في الميه	سليم مائة في المائة	معافى تماما
زي الجن الازرق	كالجن الازرق	معافى تماما
فاتك نص عمرك	فاتك نصف عمرك	ضاع عليك الكثير
وراني نجوم الظهر	اراني نجوم الظهر	ارهقني من امري عسرا
تشتغل عليه	تشتغل عليه	تنصب له اشراكها
ادهاني وانا واقف	اعطاها لي وانا واقف	اعطاني اياها في الحال
ميهمنيش رمضان	لا يهمني رمضان	رمضان لا يعنيني في شيء
راجل امير	رجل امير	رجل طيب القلب
تعملي العمله	تعمليني العملة	تأتين ما يشين
لمي جسمك	لمي جسمك	احتشمي
لازم الفستان ما جاش عند المكوجي	لا بد ان الثوب لم يأت من عند المكوجي	لا بد ان الثوب لا زال عند الكواء

(13) « في الميزان الجديد » للدكتور محمد مندور (القاهرة : مطبعة نهضة مصر) ، ص 55 .

ونحن نصر على ان نقطة الانطلاق ليست العبارات الفصيحة ، اي ان السباعي لا يعمد الى العبارات الفصيحة فيختار منها أقربها الى العامية . ولو كان ذلك مذهبه لما عثرنا في كتبه على تعابير مثل « رجل امير » و « تشتغل عليه » لانها لا تؤدي في اللغة الفصحى ما يقصد اليه من معنى .

تجريد بعض الكلمات من علامات الاعراب

اكثر الكلمات التي يجردها السباعي من علامات الاعراب هي اسماء العلم ، وهو يجردها عادة من علامة النصب ومن التنوين . غير ان السباعي احيانا يجرد من علامات الاعراب ومن التنوين كلمات غير اسماء العامية . وستجد في الجمل التالية امثلة على ما نقول: العلم ، ولا سيما اذا كانت تلك الكلمات مقتبسة من

سأعود الى البيت لارى فاضل

لا بد ان اذهب لارى عصام

انا احب عصام

اريد غيار لناديه

وضع الدكتور لها مرهم

اتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضي ؟

يرى تشارلز فرغيسون ان « التخصص من اهم مميزات الازدواج اللغوي » . (14) وهو يقصد بذلك ان العامية قل أن تؤدي من وظائف الفصحى شيئا ، وان الفصحى قل ان تؤدي من وظائف العامية شيئا. ذلك حق ، ولكنا نرى مما سبق ان العامية والفصحى تتنازعان في بداية الامر ، وان ما يكون بينهما من تنازع على وظيفة بعينها لا يتمخض عن نصر حاسم الا بعد مرور زمن قد يطول . فظهور وظيفة جديدة في الادب العربي ، هي القصة الحديثة ، قد اثار بين العامية والفصحى خصومة شديدة وصراعا عنيفا . وليس اسلوب المرحلة الثالثة عند السباعي الا اثرا من آثار هذه الخصومة وصدى من اصداء ذلك الصراع .

(14) Charles Fergusson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), p. 328.